سفر

(فصل من رواية)

□ محمود ماضي

تتأكّد من كلّ أوراقك. تنحّي الأوراقَ المهمّة: بطاقةَ هويّتكَ، جوازَ سفرك، تأشيرةَ الدخول إلى مصر، تذكرةَ الطائرة، تأشيرةَ الدخول إلى عمّان. تضعها في حقيبةٍ صغيرة، وتمنّي نفسك برحلةٍ مختلفة تنظر إلى عين أمّك. ترتعش يدكَ. تقبّلها، وتغادرُ ـ كعادتك ـ من دون أن تنظرَ إلى الخلف. تبكي بصمت

تصل إلى معبر رفح الحدوديّ يدهشكَ المنظر جدّاً، ويؤلمكَ أكثر كأنّ غزّة بجميع سكّانها رحلتْ إلى المعبر هذا الصباح! آلافُ البشر يسيرون في كلّ الاتجاهات، فيما الحافلاتُ التي تنقلُ المسافرين إلى داخل المعبر تمتلئ عن آخرها بالمسافرين. . أو قلْ إنّ الحافلات لا تتّسعُ لشيء آخر فأنتَ كنت تعرفُ سابقًا أنّ الحافلة الواحدة تتّسع لخمسين راكبًا فقط، لكنها الآن تتسع لثلاثمائة راكب أو يزيد!

تجاوزتَ الحافلات لأنّك تريد الوصولَ سريعًا عند أسلاك المعبر الشائكة، وبارتفاع أربعة أمتار، قرّرتَ أن تجازفَ مثلَ الآخرين. انتظرتَ حتى يخلو المكانُ قليلاً، ثم وجدتَ يدَك ترمي بالحقيبة إلى داخل السور، ووجدتَ نفسكَ تتسلّق الأسلاك الشائكة وتقفز، لتجد نفسَكَ داخل حدود المعبر. لم تهتمّ كثيرًا بالدم النازف من ذراعك، بل حملتَ حقيبتك، وركضتَ سريعًا حتى لا يراك الشرطيّ

وصلتَ إلى نقطة الفحص الأولى في معبر رفح الحدوديّ، الذي يصل قطاعَ غزّة بمصر، النافذةِ الوحيدةِ التي إذا ما أُغلقتْ فذلك سيعني أنّ قطاع غزّة تحوّل إلى أكبر السجون على الإطلاق، بمساحته الضيّقة (٣٦٥ كيلومترًا)، وبأعداد سكّانه القياسيّة التي تتجاوز المليونَ ونصفَ المليون من البشر

لكنّك وصلتَ، وتمّ التأكّدُ من صلاحيّة جواز سفرك. وبلحظات قياسيّة، وجدتَ نفسَكَ تدخل قاعةَ المسافرين، فيُختم جوازُ سفرك بختم الخروج، وتصعد إلى حافلةٍ أخرى متّجهةٍ صوب مصر.

حافلةٌ أخرى موتٌ إضافيّ!

تتقدّم مرتبكًا تُدخل قدمكَ إلى داخل الحافلة، فتهرب منك. يدُك اليمنى تستقرّ في مكان، وباقي جسدك في مكانٍ آخر. لا توجد أيُّ مساحة إضافيّة لأيّ راكب آخر. الكراسي ممتلئة بالمسافرين، المساحة بين الكراسي ممتلئة أيضًا، مدخل الباب، سطح الحافلة، وحتى المساحات السفليّة المخصّصة للحقائب وَجَدَها المسافرون مساحةً ممكنةً للانتقال.

ستنتظرُ قليلاً حتى تتحرّك الحافلاتُ التي تقف أمامك ستندهش من رؤية المسافرين. فكلّما نظرتَ إلى أحدهم أغمض عينيْه، أو أشاح بوجهه بعيدًا، خجلاً أو رغبةً في عدم التواصل قرّرتَ أن تفعل مثلهم: أغمضتَ عينيك حتى لا يراكَ أحد.

فتحتَ عينيك على بكاء في المنطقة الأماميّة كانت سيّدةٌ تطلب إلى زوجها في المنطقة الخلفيّة من الباص أن يأخذ ابنته إلى دورة المياه، لكنه لم يستطع الوصولَ، أو تحديدًا لم يستطع أن يتحرّك خطوةً إلى الأمام. بعضهم أشار عليه بأن ينزلَ من الشبّاك، ويتقدّم إلى حيث تقف ابنتُه، ليُنزلَها من الشبّاك أيضًا، لكنه لم يستطع ذلك أيضًا في النهاية قرّرت الطفلة أن تأخذ زمام المبادرة، وبالت داخل الحافلة

ثمّ بكت

وبكتها أمُّها أيضًا!

...

تحرّكت الحافلة. وجدتَ نفسكَ أخيرًا في صالة المسافرين، في الجانب المصريّ من معبر رفح الحدوديّ. لكنّ الصالة، على اتساعها، كانت تشبه حافلةً أخرى حقائب، نساء، رجال، أطفال، كلّهم يفترشون الأرضَ. تتأمّلهم، لكنّك لا تعرف إنْ جاؤوا قبلك إلى هذه الصالة، أم أنّهم جزء من تكوينها

تتقدّم إلى الكاونتر لتسلّم جوازَ سفرك يشير الشرطيُّ إلى مكانٍ عشوائيّ في الصالة «اجلسْ إلى حين سماع اسمك.» تبتعد عنه، وتلُوح في ذهنكَ جملةٌ تدوّنها على هاتفك: «لو كنتَ تحبّ السفر/ انظرْ إلى سفرنا.»

تحاول البحثَ عن مكانٍ لتجلسَ فيه، لكنّك لا تجد ولو ثقبَ إبرة. تبقي حقيبتك على كتفيك تتقدّم حذرًا من فوق الحقائب، وبعض الجثث النائمة. بكاءُ أطفال، صراخُ رجل على زوجته، حلقاتُ النسوة وحديثهنّ المستمرّ، شبابٌ يناقشون قضايا جانبيّة، فيما يتفق الجميعُ أنّ هذه الصالةَ عتبةُ الدخول إلى سجنٍ آخر، أو بابُ طائرة ينتظر.

الساعة الآن الثالثة عصرًا تتحسّسُ روحَكَ بيدك. تتقدَّم بجوعك نحو كافتيريا المسافرين. تأخذ ما يسدُّ حاجتك من أكلٍ ودخان، وتبتعد عيناك تبحثان عن وجهٍ مألوف. بعد ذلك ستقتنع أنّ كلّ الوجوه مألوفةٌ لديك، ولن تحتاج سوى إلى دوران بسيط لتجد نفسك خرجتَ من دائرة ودخلتَ في دائرة أخرى، وتواصل الحديث!

كلّ لحظة يخرج شرطيٌّ ينادي أسماءَ المسافرين (المفْرَج عنهم) ودائمًا يسقط اسمُك. تقتنع أخيرًا أنّكَ من المغضوب عليهم، ولن تنفع معك تأشيرةُ الدخول إلى مصر، وسيتمّ ترحيلك!

تنتظر، مع آخرين، لحظةَ الترحيل. تنظر أكثر، تنتظر أعمق. سقفُ الصالة يزداد تشقّقًا روحك تتصلّب وتشعر بها جامدةً في منتصف حلقك تمامًا. تتنحّى جانبًا لأنّك تشعر بالعطش الشديد. يدك تأبى إلا أن تأخذ سيجارةً أخرى، وتنسى الماء.

تتقدّم من أناس آخرين. تستفسر عن أسمائهم قبل اسمك. يخبرونك أنّ موعد الترحيل تمام منتصف الليل ساعتك تشير إلى السابعة والربع مساءً. تفكّر في الساعات الخمس القادمة، وتستغرب أنّ الصالة ما تزال بكثافتها ذاتها.

هل سيُرحّل كلُّ هؤلاء؟ عددهم يتجاوز الألفيْ مسافر. أين سيوضعون؟ هل توجد حافلاتٌ لنقلهم؟ كيف سيرحّلون؟ تقرّر أخيرًا أن تطلب إذنًا من سيّدة بوضع حقيبتك قربها، حتى تكون لك أحقيّةُ دخول منطقتها والجلوس فوق الحقيبة، والنووووووووووووووووم

غزة، ٢٠١١

رسالة من مدينة العقلاء

□ **وسام عويضة**

صغيرتي الجميلة،

أعتقد أني بدوتُ أحمقَ في نظر جيراني الجالسين على الطاولة المقابلة في المقهى، وهم ثلاثةُ رجال يشربون القهوةَ ولا يجرؤون على رفع صوت مذياعٍ صغيرٍ ينساب منه صوتُ فيروز الدافئ، في العاشرةِ من صباح يومٍ غير عاديّ.

أبدو كنغمة نشاز في أوركسترا اللامبالاة التي تعزفها المدينةُ بحجارتها، ومبانيها، وسكّانها، وببحرها الذي أصبح شاهدًا على ما يحدث من غير أن يتفجّرَ مغرقًا كلَّ هذا العبث

أجد نفسي هذا الصباح مدفوعًا إلى هذه الصفحات البيضاء التي تواجهني منذ نحو ساعتين، استهلكتُ خلالهما نصف علبةٍ من السجائر، وثلاثة أكوابٍ من القهوة، فيما أنا أفكرّ في الكلمات التي يمكن أن أقولها لك، والأعذار التي سأخبرك إيّاها لأبرّر صمتي كلّ هذا الوقت

هل كنتُ سأخبركِ أنّي مشغولٌ عنكِ بمتابعة نشرات الأخبار في كلّ المحطّات، وبمتابعة أعداد الموتى الذين لا أسماء لهم، والقبورِ التي تزداد كلّ يوم حتى تُزاحمَ الأحياءَ والموتى على المساحات الصغيرة التي تبقّت لنا لنعيش عليها؟